

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو ذر الغفاري... رجل يشبه عيسى عليه السلام

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَا أَظَلَّتِ الْخَضِرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتِ الْغُبَرَاءُ مِنْ ذِي لَهَجَةٍ أَصْدَقَ، وَلَا أَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ شَبْهَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَفَتَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ فَاعْرِفُوهُ لَهُ)) وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَبُو ذَرٍّ يَمْشِي فِي الْأَرْضِ بِرُحْدِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ)).
بالمناسبة فإن شهادة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه شهادة حق، لأنه لا ينطق عن الهوى، ولأنه عليه الصلاة والسلام لا يعرف المحاباة والمديح، ولأنه الإنسان الكامل، فإذا مدح صحابياً يمدحه بما فيه، ولا ينطق عن الهوى أبداً، إن هو إلا وحي يوحى . مهما يكن وضعك الصحي، أو الاجتماعي أو الاقتصادي، أو العلمي، أو الطبقي، أو العرقي، فلا شيء يحول بينك وبين أن تكون بطلاً عند الله عز وجل، لأن هذا الدين دين الله عز وجل، وليس هناك عقبة إلا منك، لذلك ترون من الصحابة من هم في قمم النسب القرشي؟ ومن الصحابة من هم دخلاء على قريش، فسلمان وبلال وصهيب دخلاء على قريش، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام؟: ((سَلَمَانُ مِنَّا أَهْلُ النَّبِيتِ))، النبي عليه الصلاة والسلام ألغى النسب كله، قال: ((أنا جد كل تقي، ولو كان عبداً حبشياً))، هذا هو الإسلام، وما سوى ذلك جاهلية. فأى إنسان يعتد بأسرته، بوسامته، بذكائه، بقومه، بأمته، فهو اعتداد أعمى، إن لم يقدم شيئاً يرفعه، فهذا سلوك جاهلي، وتفكير جاهلي، فَعَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غَلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَيْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأَمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأَمِّهِ، إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ حَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلِفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))، كل إنسان يحابي إنساناً لا لأخلاقه، ولا لعلمه، ولكن لنسبه، أو لاتصاله بقومه، أو لعشيرته، أو أسرته، فهو إنسان جاهلي عنصري.

قبيلة غفار كانت تنزل في قعر الوادي الذي يصل مكة بالعالم الخارجي، يعني على الطريق، وكانت غفار قبيلة فقيرة جداً، تعيش من ذلك النزر اليسير الذي تبذله لها القوافل. كان جندب بن جنادة المكنى بأبي ذر واحداً من أبناء هذه قبيلة غفار، وكان واحداً من هذه القبيلة التي تعيش في ذلك المكان، لكن هذا الصحابي الجليل كان يمتاز بجرأة القلب، ورجاحة العقل، وبُعدِ النظر، وفطرته كانت تأبى أن يعبد الأصنام، كان يضيق أشد الضيق بهذه الأوثان التي تُعبد من دون الله، ويستتكر على قومه، يستتكر فساد دينهم، وتقاهة معتقدهم. سيدنا أبو ذر كان عنده فراغ، كان عنده بحث دائم، ثم تاهت إلى أبي ذر وهو في باديته أخبار النبي عليه الصلاة والسلام الذي ظهر في مكة، وقال لأخيه أنيس: ((انطلق إلى مكة، وقف على أخبار هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وأنه يأتيه وحي من السماء، واسمع شيئاً من قوله واحمله إلي. ذهب أنيس إلى مكة، والتقى بالنبي صلوات الله وسلامه عليه، وسمع منه، ثم عاد إلى البادية، فلتقاه أبو ذر باللهفة، وسأله

عن أخبار النبي الجديد بشغف، فقال: لقد رأيت والله رجلاً يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر، فقال: وماذا يقول الناس عنه؟ قال: يقولون: ساحر، وكاهن، وشاعر، فقال أبو ذر: والله ما شفيت لي غليلاً، ولا قضيت لي حاجة، فهل أنت كافٍ عيالي حتى انطلق فأنظر في أمره؟ قال: نعم، ولكن كن من أهل مكة على حذر، لأن الرجل مُحارَب هناك، فإذا علموا أنك جئته ربما قتلوك))

تزود أبو ذر لنفسه، وحمل معه قربة ماء صغيرة، واتجه من غده إلى مكة يريد لقاء النبي عليه الصلاة والسلام، والوقوف على خبره بنفسه. بلغ أبو ذر مكة المكرمة، وهو متوجس خيفة من أهلها، فقد تهاوت إليه أخبار غلبة قريش لآلهتهم، وتكليفهم بكل من تحدثه نفسه باتباع محمد، لذا كره أن يسأل أحداً عن محمد، لأنه ما كان يدري أيكون هذا المسؤول من شيعته أم من عدوه؟ لا يعرف. لما أقبل الليل اضطجع في المسجد، فمر به رجل هو سيدنا علي بن أبي طالب، فعرف أنه غريب، فقال: هلم إلينا أيها الرجل، فمضى معه، وبات ليلته عنده، وفي الصباح حمل قربه ومزوده، وعاد إلى المسجد دون أن يسأل أحداً عن شيء. ثم قضى أبو ذر يومه الثاني دون أن يتعرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أمسى أخذ مضجعه من المسجد، فمر به علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أما آن للرجل أن يعرف منزله؟ ثم اصطحبه معه فبات عنده ليلته الثانية، ولم يسأل أحدٌ منهما صاحبه عن شيء، فلما كانت الليلة الثالثة، قال علي لصاحبه: ألا تحدثني عما أقدمك إلى مكة؟ فقال أبو ذر: إن أعطيتني ميثاقاً أن ترشدني إلى ما أطلب فعلت، فأعطاه عليٌّ ما أراد من ميثاق، فقال أبو ذر: لقد قصدت مكة من أماكن بعيدة أبتغي لقاء النبي الجديد، وسماع شيء مما يقوله، فانفرجت أسارير سيدنا علي، وقال: والله إنه لرسول الله حقاً. قال: والله إنه لرسول الله حقاً، وإنه وإنه وإنه، وحدثه عن النبي، فإذا أصبحنا فاتبعني حيثما سرت، قال له: سر ورائي، فإن رأيت شيئاً أخافه عليك، وقفْتُ كأني أريق الماء فانتبه وارجع، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل معي، فلم يقر لأبي ذر مضجعه طوال ليلته شوقاً إلى النبي ورؤيته، ولهفة إلى استماع شيء مما يوحى إليه. وفي الصباح مضى عليٌّ بضيفه إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومضى أبو ذر وراءه يقفو أثره، وهو لا يلوي على شيء، حتى دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم. حينما رأى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: السلام عليك يا سول الله. أقبل النبي عليه الصلاة والسلام على أبي ذر يدعو إلى الإسلام، ويقرأ عليه القرآن، فما لبث أن أعلن كلمة الحق، ودخل في الدين الجديد قبل أن يبرح مكانه، فكان رابع ثلاثة أسلموا أو خامس أربعة)).

قال أبو ذر: ((أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فعلمني الإسلام، وأقراني شيئاً من القرآن، ثم قال لي: لا تخبر بإسلامك أحداً في مكة، فإنني أخاف عليك أن يقتلوك، فقلت: والذي نفسي بيده لا أبرح مكة حتى آتي المسجد، وأصرخ بدعوة الحق بين ظهرائي قريش، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. -الحقيقة التفسير سهل، من شدة انبهاره بالدعوة، من شدة سعادته بالإسلام، فهل من المعقول أن في الناس من لا يعرف الإسلام؟ فتطوع أن يخرج إليهم، وأن يصرخ في وجههم بكلمة الحق، مع أن النبي نصحه ألا يفعل - . قال: فجئت المسجد، وقريش جلوس يتحدثون، فتوسطتهم، وناديت بأعلى صوتي، يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، فما كادت كلماتي تلامس آذان القوم حتى ذعروا جميعاً،

وهبوا من مجالسهم، وقالوا: عليكم بهذا الصابى، وقاموا إليّ، وجعلوا يضربونني لأموت، فأدركني العباس بن عبد المطلب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، وأكب عليّ ليحميني منهم، ثم أقبل عليهم، وقال: ويلكم، ويلكم، أتقتلون رجلاً من غفار، وممر قوافلكم عليهم؟ قال: ولما أفقت من غيوبتي بعد أن ضربت ضرباً مبرحاً، جنّت النبي عليه الصلاة والسلام، فلما رأى ما بي قال: يا أبا ذر، ألم أنك عن إعلان إسلامك؟ فقلت: يا رسول الله، كانت حاجة في نفسي فقضيتها، فقال: الحقّ بقومك، وأخبرهم بما رأيت وما سمعت، وادعهم إلى الله، لعل الله ينفعهم بك، ويأجرك فيهم، قال: فإذا بلغك أني ظهرت فتعال إليّ))، ما معنى ظهرت؟ يعني نصرني الله، الآن النبي مستضعف متخف .

قال أبو ذر: ((فانطلقت حتى أتيت منازل قومي، فلقيني أخي أنيس، فقال: ما صنعت؟ قلت: لقد أسلمتُ وصدّقتُ، فما لبث أن شرح الله صدره، وقال: مالي رغبة عن دينك، فإني قد أسلمت وصدقت أيضاً، ثم أتينا أمنا فدعوناها للإسلام، فقالت: مالي رغبة عن دينكما، وأسلمتُ أيضاً. منذ ذلك اليوم انطلقت الأسرة المؤمنة تدعو إلى الله، لا تكلّ عن ذلك، ولا تملّ منه، حتى أسلم من غفار خلق كثير، وأقيمت الصلاة فيهم. لكنّ فريقاً منهم، قال: نبقى على ديننا، حتى إذا قدم النبي المدينة أسلمنا، فلما قدم النبي المدينة أسلموا - فعن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((غَفَارٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ)).

أقام أبو ذر في باديته حتى مضت بدرٌ وأحدٌ والخندقُ، ثم قدم إلى المدينة، وانقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستأذنه أن يقوم في خدمته، فأذن له، ونعمَ بصحبته، وسعدَ بخدمته، وظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثّر ويكرمه، فما لقيه مرةً إلا صافحة، وهشّ في وجهه وبشّ .

لما لحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى لم يُطق أبو ذر صبراً على الإقامة في المدينة، بعد أن خلت من سيدها، وأقفرت من هدي مجلسه، فرحل إلى بادية الشام، وأقام فيها مدة خلافة الصديق والفاروق رضي الله عنهما جميعاً. وفي خلافة عثمان نزل في دمشق، استدعاه عثمان إلى المدينة، فقدم إليها، ثم انتقل إلى الربرة، وهي قرية صغيرة من قرى المدينة، فرحل إليها، وأقام فيها بعيداً عن الناس، زاهداً بما في أيديهم من عرض الدنيا، مستمسكاً بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه من إثارة الباقية على الغانية)).

دخل عليه رجلٌ ذات مرة، فجعل يقلب الطرف في بيته، فلم يجد فيه متاعاً، فقال: ((يا أبا ذر، أين متاعكم؟ فقال: لنا بيت هناك، نرسل إليه صالح متاعنا، ففهم الرجل مراده، -أنّه يعني الدار الآخرة- وقال: ولكن لا بد لك من متاع ما دمت في هذه الدار، فأجاب: ولكن صاحب المنزل لا يدعنا فيه)). بعث إليه أمير الشام بثلاثمئة دينار، وقال له: ((استعن بها على قضاء حاجتك، فردّها إليه، وقال: أما وجد أمير الشام عبداً لله أهون عليه مني)).

وفي السنة الثالثة والثلاثين للهجرة استأثرت يد المنون بالعابد الزاهد، الذي قال فيه النبي صلوات الله عليه: ((مَا أَظَلَّتْ الْخَضِرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتْ الْغُبَرَاءُ، -الغبراء الأرض، والخضراء السماء - مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ، وَلَا أَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ شِبْهُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ))، يعني أصدق مع ربه، وأصدق في طلب الحق، وأصدق في الزهد في الدنيا .